المحاضرة رقم 05 التقليد والتجديد في الشعر العباسي

أولا- التقليد:

1- طوائف الشعراء في العصر العباسي:

تشكل المشهد الشعري في العصر العباسي بناء على أساس من الاتجاهات الثلاثة التي انقسم الشعراء بحسبها إلى فئات ثلاثة، بينها فروق فنية تفصل بين أشعار هذه الفئة أو تلك؛ بحيث "صار الباحث في الشعر يحس أن الشعراء قد تقسموا طوائف، واختلفوا مذاهب وطرائق؛ منها ما انغمر في لج الحضارة الجديدة.. واختط لنفسه في الشعر نهجا جديدا. ومنها ما وقف من الحضارة الجديدة موقف الواعي المدرك. ومنها ما لم تتسع نفسه للجديد، ولم يستطع أن يفارق القديم"(1). وبناء على هذا التقسيم المنهجي فإن الشعراء العباسيين ينقسمون إلى ثلاثة طوائف هي: طائفة المجددين، وطائفة المتفننين، وطائفة المقلدين.

1- الشعراء المجددون:

وهم مجموعة من الشعراء صنعوا جدلا كبيرا بأشعارهم المستحدثة، ويعرفهم الدكتور أحمد عبد الستار الجواري بأنهم: "طائفة غلب عليها الهزل والمجون، وتميزت بالدلال، ولم تكن تبالي بشيء أو تلتزم حدودا في عقيدة أو خلق. وقد سلكت في فنها الشعري -على وجه العموم- مسلك الثورة على القديم والتحرر من قيوده قدر المستطاع، وحاولت أن تخرج على قواعد الفن في أسلوب الشعر وأن تجد في موضوعاته"(2)؛ وقد عمل هؤلاء الشعراء على بلورة عقيدتهم الشعرية الجديدة، انطلاقا من عقيدتهم الشعوبية، الثائرة على كل ما يرمز إلى العرب.

---

(1)- أحمد عبد الستار الجواري: الشعر في بغداد حتى نهاية القرن الثالث الهجري، ص ص 234 - 235.

(2)- المرجع نفسه، ص 235.

ومن أشهر الشعراء الذين مثلوا هذه الفئة ما يلي :

- بشار بن برد .
- مهيار الديلمي .
- حمّاد عجرد .
- أبو الشمقمق .
- مطيع بن إياس .
- والبة بن الحباب .
- أبو نواس .
- الحسين بن الضحّاك .
- أبو العتاهية .

وكانت هذه الطائفة معروفة بمجموعة صفات، كالزندقة، والعقائد الدخيلة على الإسلام، والخلاعة والمجون، والتبذل، والتفسّخ والانحلال الخلقي.

ه- الشعراء المتفنّنون :

يعد الشعراء المتفنّنون فئة من الطوائف الشعرية، وأصحاب اتجاه شعري له مكانته في الشعر العباسي، ويصفها أحمد عبد الستار الجواري بأنها: " الطائفة التي عنيت بفن الشعر عناية ملحوظة، فلم يغلب المجون في نظرتها إليه، ولم تحاول أن تغامر فيه مغامرة الطائفة الأولى(..) وهذه الطائفة من الشعراء هي طائفة المتفنّنين الذين كانوا يعرفون للفن الشعري حقّه "(1)؛ ومعنى هذا عدم التخلي المقاييس الحقيقية للفن الشعري، في جانبيه الشكل والمضمون، " فيعنون بالصورة التعبيرية والمعنى الجزئي، مع المحافظة على المقاييس الفنية المألوفة في الشعر من جزالة العبارة ورصانة الأسلوب ومراعاة الوقار الفني للشعر "(2) منطلقين في هذا الاتجاه من عقيدة عربية إسلامية ليس فيها مجون ولا شعوبية، ولا رغبة في الثورة على التقاليد الفنية، بل دعمها فنيا وأخلاقيا في ضوء التطور الحضاري الذي تعاملوا معه بوعي وسلاسة .

---

(1)- أحمد عبد الستار الجواري: الشعر في بغداد حتى نهاية القرن الثالث الهجري، ص 240-241.

(2)- المرجع نفسه، ص 241 .

وقد كانت هذه الفئة محافظة ومجددة في الآن نفسه، فكان لها حظ وافر في التراث الشعري العباسي، فلم ينصرف شعراؤها في فنهم إلى جهة دون أخرى، ويؤكد أحمد عبد الستار الجواري هذا بقوله: "إن هذه الطائفة من الشعراء كانت ذات طابعين متقابلين في حياة الشعر وتاريخه، طابع المحافظة على قديمه والاحتفاظ بأصوله، وطابع التجديد بالقدر الذي تقتضيه الحضارة في هذا العصر وفي هذه البيئة"(1)؛ وبفضل هذه الطائفة حافظ الشعر العباسي على طبيعته العربية، وتقاليده الفنية العريقة، كما استرجع وظيفته الحقيقية في الحياة السياسية والثقافية والفكرية.

وكان الشعراء المولّدون قد ساروا في هذا الاتجاه، من أمثال: ابن هرمة وبشار، و"كلثوم بن عمرو العتابي"، و"منصور النمري"، ومسلم بن الوليد الأنصاري، و"مروان بن أبي حفصة"، و"أبو تمام"، و"عمارة بن عقيل".

وفي الأخير يمكن القول إن التجديد عند هذه الفئة كان في الجزئيات، ولم يكسروا نظام القصيدة ولم يغيروا فيها إلا بما يلائم زمنهم، كما أنهم لم يعنوا بالأوزان القصيرة كما فعل شعراء الاتجاه التجديدي البحت (المحض). وقد انصب اهتمامهم على ابتكار المعاني والتجويد في الصور وتمثيل المعاني في صور بيانية تغلب عليها الصناعة والزخرفة والتنميق.

---

(1) - أحمد عبد الستار الجواري: الشعر في بغداد حتى نهاية القرن الثالث، ص 244.

3- الشعراء المقلدون: هي الفئة الثالثة التي ظل أصحابها محافظين على الطبيعة البدوية القديمة للشعر العربي، رغم وجودهم في العصر العباسي ويصفهم الدكتور أحمد عبد الستار الجواري بالمحافظة الشديدة وعدم الابتكار، حتى أنهم لتذوب أشعارهم في أشعار الجاهليين والقدماء، يقول: "فكانت طائفة المقلدين الذين جروا في مضمار الأقدمين من دون أن يتأثروا في قليل أو كثير، مما حاولوا أن يبدعوا أو يبتكروا، ولا أضافوا إلى الشعر شيئا مما أضافته الطائفتان الأوليان. ولولا ما ذكروا في شعرهم من الأعلام العباسية لما أمكننا أن نستدل على عصرهم، ولجاز أن يتوهم دارس شعرهم أنه قيل في العصر الأموي أو في العصر الجاهلي" (1)؛ وبناء على هذا التوصيف فإنهم تمثلوا فئة من الشعراء الموغلين في التأثر بالقديم، وتجديده، فلم يستطيعوا التخلي عنه بتلك السهولة كما فعل أصحاب الاتجاه المجدد الرافض للبقاء في إطار القديم.

ويذكر الدكتور أحمد عبد الستار الجواري أن هذه الفئة كانت من حضر في الدولتين الأموية والعباسية، ويعتبرهم امتدادا لطبقة الفحول من شعراء العراق في أوائل العصر العباسي (2). ومن شعراء هذا الاتجاه: "مروان بن أبي حفصة"، و"اسحاق بن ابراهيم الموصلي"، و"عمارة بن عقيل"، و"أبو العميثل"، و"بكر بن النطاح الحنفي"، و"علي بن جبلة"، و"العكوك". وقد أسهم شعراء هذه الطائفة من المحافظين (المقلدين)، في المحافظة على التراث العربي في التقاليد الاجتماعية، وفي الحفاظ على التقاليد العربية الموروثة في الشعر، وكان وراء هذه الفئة أمراء الجيوش من ذوي الأصول العربية، ممن لم يرقهم الانغماس في كل ما هو جديد من تقاليد الفرس التي فرضوها تواجدهم في مراكز القوة والنفوذ (3).

---

(1)- أحمد عبد الستار الجواري: الشعر في بغداد حتى نهاية القرن الثالث الهجري، ص 250.
(2)- ينظر، المرجع نفسه، ص 250.
(3)- ينظر، المرجع نفسه، ص 253.

أسباب تمسك الشعراء بالقديم:

هناك مجموعة من الأسباب جعلت العلماء يتمسكون بالقديم من التراث الشعري؛ وكان القرآن والحديث النبوي أحد هذه الأسباب، وقد ذكر الجاحظ هذا في قوله: « للعرب أمثال واشتقاقات وأبنية وموضع كلام يدلّ عندهم على معانيهم وإراداتهم. فمن لم يعرفها جهل تأويل الكتاب والسنة والشاهد والمثل. فإذا نظر في الكلام وفي ضروب من العلم وليس هو من أهل هذا الشأن هلك وأهلك الناس »(1).

ومن المعلوم أن في العصر العباسي كانت أسباب اللحن في القرآن والحديث قد تهيأت باتساع رقعة الدولة، وامتزاج الأعراق والثقافات. وهذا ما دعا الخلفاء إلى التدخل لحماية اللغة، يقول شوقي ضيف في هذا: « إن خلفاء بني العباس أظهروا محافظة شديدة على لغة القرآن الكريم وبعثوا العلماء على مدارستها والتعمق فيها ورواية كل ما يتصل بها من أنساب وأيام وأخبار وأشعار »(2)؛ وهذا التدخل المباشر من الخليفة هو ما يطلق عليه العامل السياسي. وهو الآخر لا يقل أهمية عن السبب الأول المتعلق بالحفاظ على القرآن والحديث النبوي.

وقد أظهر علماء اللغة والرواة محافظة شديدة على الذوق العربي الأصيل للغة في أساليبها وتراكيبها. كما ألفوا كتبا ضمّنوها أفضل النماذج الشعرية لكبار الشعراء القدماء. وكان هذا بتوصية من الخليفة الذي كان ينتدبهم لتعليم أبنائه، وكان هذا وراء التيار المحافظ، يقول الدكتور شوقي ضيف موضحا لهذه القضية: « وبذلك سرى في العصر العباسي ذوق

---

(1)- الجاحظ: كتاب الحيوان، تحقيق وشرح عبد السلام هارون، ط2، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، مصر، 1965، ج2، ص 153-154.

(2)- شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي، العصر العباسي الأول، ط8، دار المعارف، القاهرة، مصر، 1966، ج3، ص 139.

محافظ كان له أثره في الشعراء، إذ كانوا يمثلون بين أيدي الخلفاء مادحين لهم. وكانوا يفسون جودتهم بهذا الذوق، فكان لابد لهم أن يتلاءموا معه حتى يظفروا بما يبتغون من جوائز كبيرة، وكانت مجالس الخلفاء تكتظ باللغويين من مثل الكسائي والأصمعي، فكان لابد للشعراء أن يروقوهم حتى ينالوا استحسانهم، ويرى ذلك الخلفاء منهم فيجزلوا لهم في العطاء» (1)

(1)- شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي، العصر العباسي الأول، ج 3، ص 139.

معاني الشعر في العصر العباسي:

تمهيد:

من المعلوم أن المعاني هي من الأمور المشتركة المشاعة بين الناس رغم اختلاف بيئاتهم وثقافاتهم، وقد قرر هذا الجاحظ في قوله النقدي المشهور حينما قال: "والمعاني مطروحة في الطريق، يعرفها العجمي والعربي والبدوي والقروي، وإنما الشأن في إقامة الوزن، وتخير اللفظ، وسهولة المخرج، وكثرة الماء، وفي صحة الطبع وجودة السبك، فإنما الشعر صناعة وضرب من النسج، وجنس من التصوير."(1).

وفيما يخص المعاني الشعرية، في العصر العباسي، فيشير الدكتور مصطفى هدارة إلى قسمين أحدها غلب عليه التقليد للشعراء الجاهليين والإسلاميين، يقول عنها: "تناولها العباسيون فأحسنوا غالبا صوغها وحاكوا هؤلاء في حسن سبكها أو زادوا عليهم في ذلك بما امتازوا به من حصافة الرأي واتساع الحيلة في القول والقدرة على الخلابة باللفظ وما كان لهم من عناية بالتحسين"(2). وبهذا فإن اطلاع الشعراء العباسيين على المعاني الواردة في أشعار السابقين، وتقليدهم لها كان تمهيدا لمرحلة التجديد التي لم يعتمدوا فيها إلا على ما جادت به قرائحهم، يقول عنها مصطفى هدارة: "وأما القسم الثاني فهو المعاني التي استقل العباسيون باختراعها، ولم يكونوا فيها عيالا على غيرهم"(3)

(1) الجاحظ: "الحيوان"، تح. عبد السلام هارون، ط2، شركة البابي الحلبي وأولاده. مصر، القاهرة، مصر، 1965، ج3، ص ص 131 - 132.

(2) محمود مصطفى: الأدب العربي وتاريخه في العصر العباسي، (ط2)، مصطفى البابي الحلبي - مصر، 1937، ص 328.

(3) المرجع نفسه، ص 329.

1 المعاني القديمة المقلّدة :

للشعراء العباسيين أبياتا شعرية كثيرة يأخذون معانيها من الشعر الجاهلي إعجابا منهم بها، فبقيت تدور بينهم في كثير من المناسبات، وحين أخذ المتأخّر (الشاعر العباسي)، المعنى من المتقدّم لم يكن دائما بمثابة واحدة من الزيادة عليه أو التقصير عنه، بل إنّ ذلك يرجع إلى الشاعر ومهارته في الصوغ، وحسن تأتيه للمعنى واحتياله على ابرازه حتى لقد يصبح بذلك أجدر بالمعنى من مخترعه» (1).

ومن المعاني التي دأب الشعراء على تقليدها ما جاء في قول النابغة الذبياني في وصف قدرة النعمان بن المنذر على ادراك مطلوبه، حين قال: (2)

فإنّك كاللّيل الذي هو مُدركي ... وإن خلتُ أنّ المنتأى عنك واسعُ

أخذ عنه الشاعر العباسي "منصور النمري" وقال: (3)

فلو كنتُ كالعنقاء أو كسُمُوّها ... لخلتُك إلاّ أن تَصُدّ تَرَاني

كما أخذ الشاعر "سلم الخاسر"، هذا المعنى وعبّر عنه بقوله: (4)

فأنت كالدّهر مبثوثًا حبائلُه ... والدّهر لا مَلجأٌ منه ولا هَرَبُ

ولو ملكتُ عنانَ الريح أصرفها ... في كلّ ناحيةٍ ما فاتك الطلب

---

(1)- محمود مصطفى: الأدب العربي وتاريخه في العصر العباسي، ج2، ص 329.

(2)- النابغة الذبياني: ديوان النابغة الذبياني، شرح وتقديم عباس عبد الساتر، ط3، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1996، ص 56.

(3)- عبد الرحيم العباسي: معاهد التنصيص على شواهد التلخيص، تح. محمد محي الدين عبد الحميد، عالم الكتب، بيروت، لبنان، 1947، ج1، ص 332.

(4)- المصدر نفسه، ج1، ص 332.

وتناوله البحتري أيضا فقال: (1)

ولو أنهم ركبوا الكواكب لم يكن ... يُنجيهم من خوفِ بأسِكَ مهربُ

كما أخذ "علي بن جبلة" معنى بيت النابغة فقال: (2)

وما لامرئٍ حاولتَهُ منك مهربٌ ... ولو رفعَتْهُ في السماء المطالعُ

بلى هاربٌ لا يهتدي لمكانِهِ ... ظلامٌ ولا ضوءٌ من الصبحِ ساطعُ

ومن المعاني التي وردت في أشعار الجاهليين، وقلدها شعراء الدولة العباسية، قول عروة بن الورد، وهو من الشعراء الصعاليك الجاهليين: (3)

ومن يكُ مثلي ذا عيالٍ ومقترًا ... من المالِ يطرح نفسه كلَّ مطرح

ليبلغَ عذرًا أو ينالَ رغيبةً ... ومُبلغُ نفسٍ عذرَها مثلُ مُنجح

أخذه أبو تمام، فقال: (4)

فتًى ماتَ بين الطعنِ والضربِ ميتةً ... تقومُ مقامَ النصرِ إن فاتَهُ النصرُ

فقد عمد أبو تمام إلى أخذ معنى مفاده أن الموت في الحرب يقوم مقام الانتصار ليقلد المعنى الذي عبر عنه الشاعر الصعلوك عروة بن الورد، وهو أنه جعل اجتهاده في طلب الرزق يحلُّ محلَّ النجاح في إدراكه. والمعنى عند كليهما واحد، واللفظ مختلف.

---

(1) - عبد الرحيم العباسي: معاهد التنصيص على شواهد التلخيص، ج 1، ص 332.

(2) - المصدر نفسه، ج 1، ص 332.

(3) - عروة بن الورد: ديوان عروة بن الورد أمير الصعاليك، تح. أسماء أبو بكر محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1998، ص ص 51 - 52.

(4) - عبد الرحيم العباسي: معاهد التنصيص على شواهد التلخيص، ج 1، ص 331.

1. الموضوعات التقليدية:

من النقاد المعاصرين من يرى أن الأغراض الشعرية في الأدب العباسي بقيت محافظة على أشكالها ومضامينها منذ الجاهلية وحتى العصر العباسي، وهذا ما ذهب إليه الدكتور نبيل خليل أبو حاتم، في قوله: "ونحن لو ألقينا نظرة فاحصة على الموضوعات القديمة من مدح ورثاء وهجاء وفخر وحماسة ووصف وغزل وما إلى ذلك من الأغراض الشعرية الموروثة التي ظلت بأنواعها وأشكالها ومعانيها وأساليبها سائرة في طريقها منذ العصر الجاهلي لوجدناها ماضية في طريقها في شعر القرن الرابع"(1)؛ وقد اعتمد الدكتور نبيل أبو حاتم في هذا الحكم على مجموعة الثوابت التي ينظر من خلالها النقاد إلى هذه الأغراض الشعرية، وهي الأشكال ويقصد بها البناء الفني، والمعاني، والأساليب أو الطرق التعبيرية.

ويؤكد أن هذه الموضوعات كانت سطوتها عظيمة على الشعراء، لا يتمكنون من الخروج عليها، فيقول: "ونفرض نفسها فرضا على نتاج الشعراء الذين ظلوا مأسورين بكل حواسهم مقيدين بكل عقولهم لهذه الموضوعات التقليدية التي وجدوا فيها الغذاء الروحي لقرائحهم والزاد الدسم لصقل مواهبهم"(2). والسبب في هذا أن هؤلاء الشعراء كانوا يحفظون الشعر الجاهلي والإسلامي والأموي، فيترك بصمته على عقولهم بصوره وألفاظه وأخيلته. وفيما يلي أهم الموضوعات:

---

(1)- نبيل خليل أبو حاتم: اتجاهات الشعر العربي في القرن الرابع الهجري، ص 97.
(2)- المرجع نفسه، ص 97.

ويطلق الدكتور طه عبد المقصود اسم الاتجاه المحافظ الجديد ويذكر أن: "أبا تمام الشاعر البغدادي الكبير كان من أوائل الذين ساروا في هذا المنحى وتبعه البحتري المتوفى 284هـ-897م وآخرون ممن عاصروهما أو جاءوا بعدهما"(1)

ويؤكد الدكتور عبد السلام عبد العال أن هذين الشاعرين قد سلكا طريق التقليد والمحافظة على القديم لجودته، وأنهما من: "أبرز شعراء عصرهما، شغلا الناس بهما زمنا ليس بالقصير، وهما أبو تمام والبحتري؛ وثانيهما - كما هو معروف - يمثل طريقة العرب أو يقوم بعمود الشعر، وأولهما يغوص وراء المعاني ويغرق في البديع"(2)؛ وبهذا يحدد الدكتور عبد السلام علمين بارزين في الاتجاه المحافظ في الشعر العباسي، ويقدم ملاحظتين عليهما؛ الأولى تخص ميزات أبي تمام، وهي اهتمامه بالمعاني، والثانية تتعلق بالبحتري، وهي محافظته على عمود الشعر كما كان عند الأجداد في العصور السابقة على العصر العباسي.

ومع اهتمام أبي تمام بالمعاني إلا أنه يقيم عمود الشعر، هو الآخر على الوجه الذي كان سائدًا في العصر الجاهلي والإسلامي والأموي. ولا يقتصر الاتجاه المحافظ على هذين الشاعرين بل يشمل مجموعة من الشعراء برزوا في هذا الإطار، وبخاصة في شعر المدح كأبي الفرج الببغاء في مديح سيف الدولة الحمداني والمتنبي، وابن الدمينة، وابن ميادة

(1) طه عبد المقصود وعبد الحميد أبو عبية: الحضارة الإسلامية دراسة في تاريخ العلوم الإسلامية.

(2) - عبد السلام عبد العال: نقد الشعر بين ابن قتيبة وابن طباطبا العلوي، (د.ط)، دار الفكر العربي للطبع والنشر القاهرة، مصر، (د.ت)، ص 436.

وأبي حية النميري وأبو الفرج البيغاء وغيرهم كثير.

أ- المدح: المدح من الموضوعات الشعرية التي تشتمل على ملامح التقليد الفني للشعر القديم، في العصر العباسي، ويؤكد الدكتور نبيل خليل أبو حاتم على هذا بقوله: « لو تتبعنا الموضوعات الشعرية التي عرفت منذ العصر الجاهلي لوجدناها متمثلة في شعر هذا القرن بمعانيها المألوفة تقريبًا مع التحوير في جزئياتها وفي بعض صورها، فإذا مضينا إلى شعر "لأبي الفرج البيغاء" في مدح سيف الدولة الحمداني، نجده أسير التقاليد التي جرى عليها جمهور الشعراء الأجداد، من حيث المعاني المطروقة والأسلوب الفخم والتعابير الرصينة والألفاظ ذات الجرس القوي التي تملأ الفم »(1)، ويقدم على هذا نموذجًا شعريا في مدح سيف الدولة الحمداني، وهو قوله أبي الفرج البيغاء:(2)

في عارضٍ ضاقت الأرضُ الفسيحةُ عن ... سُراهُ إذا سال فيه سيلُه العَرِمُ
كأنه الليلُ لا قُربٌ ولا بعدُ ... يخفى عليه ولا فجٌّ ولا علمُ
يهدي الغبارُ إليه الشمسَ كاسفةً ... كأنها فيه سرٌّ ليس يُكتتمُ
تشقُّ الخضنفرُ آجامَ الرماحِ به ... والموتُ يسفِرُ أحيانا ويلتثمُ
فراسلُ الدهرَ في الأعداءِ عزمتُهُ ... وكاتبُ النصرِ عنه السيفُ لا القلمُ
وما سمعنا بليثٍ قبلَ رؤيتِه ... إذا سرى صاحبتْهُ في السرى الأجمُ
الباذلُ العرفَ والأنواءُ باخلةٌ ... والمانعُ الجارَ والأعمارُ تختَرمُ
حيثُ الدجى النقعُ والفجرُ الصوارمُ ... والأسدُ الفوارسُ والخطيةُ الأجمُ

يتضح من خلال أسلوب هذه القصيدة، ومعانيها وصورها وألفاظها أنها تحافظ على السمات الفنية الأصيلة في الشعر القديم، والحجم هو نفسه يتكرر بطريقة أو أخرى، من خلال البحر والأوزان؛ « فالبحور ذات الجرس

(1)- نبيل خليل أبو حاتم: اتجاهات الشعر العربي في القرن الرابع الهجري، ص 98.
(2)- الثعالبي النيسابوري: يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، تح. مفيد محمد قميحة، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1983، ج1، ص 329.

الضخم والتفعيلات الرنانة كانت نسمة موسيقى شعر المدح، ولهذا نرى الشاعر مقلدا في صورته الشكلية الكلية التي رسمها لشجاعة هذا الزعيم وكرمه. فهو الليل، وهو الأسد، وكلها صور تقليدية مألوفة »(1)

ويذكر غازي طليمات أهم معاني المدح في الشعر الجاهلي، في قوله: " وأهم هذه المعاني: الشجاعة وإغاثة الملهوف، وحماية الجار وكرم الأرومة، ونقاء العرض، والوفاء بالذمم، وسعة الصدر، والحزم في غير عنف، والحلم في غير ضعف، والكرم الذي يتبدى بصور كثيرة والشهرة وحصافة الرأي والصبر على صروف الدهر، والمجد التليد. إنها باختصار جماع المثل التي كان المجتمع العربي يؤمن بها »(2)؛ فالمتأمل في قصائد المدح في الشعر العباسي، يجد أنها لا تخرج عن ذكر هذه المعاني والصفات التي تواضع الشعراء على أنها صفات وأخلاق رفيعة لا يمكن لشاعر أن يغفلها في شعره.

ومن الاتجاه التقليدي في المدح قول أشجع السلمي، في مدح الرشيد يصفه بالقوة، وترهيب العدو في اليقظة والنوم:(3)

وصلت يداك السيف يوم تقطعت ... أيدي الرجال وزلت الأقدام

وعلى عدوك يا ابن عم محمد ... رصدان ضوء الصبح والإظلام

فإذا تنبه رعته وإذا غفا ... سلت عليه سيوفك الأحلام

---

(1)- نبيل خليل أبو حاتم: اتجاهات الشعر العربي في القرن الرابع الهجري، ص 99.

(2)- غازي طليمات، وآخر: الأدب الجاهلي قضاياه أغراضه أعلامه فنونه، ط1، دار الارشاد بحمص، سوريا، 1992، ص 164.

(3)- ابن قتيبة: الشعر والشعراء، ج2، ص 882.

ب- الفخر:

الفخر هو غرض من أغراض الشعر العربي القديم، ظهر في الجاهلية وهو نوع من المدح غير أنّ الشاعر يخص به نفسه وقومه، فيتغنى بالفضائل والمثل العليا، ويتباهى بالسجايا النفسية، والصفات الحميدة الموروثة.

وقد حافظ الشعراء الاتجاه التقليدي في العصر العباسي على هذا الغرض الشعري، وساروا فيه على نهج القدماء، الشاعر ناهض بن ثومة: (1)

ألا هل أتى كعباً على نأي دارهم ... وخذلانهم أنا سَرَرنا بني كعبِ
بما لقيت منّا نميرٌ وجمعُها ... غَداةَ أتينا في كتائبنا الغُلْبِ
فيالك يوماً بالحمى لا نرى له ... شبيهاً وما في يوم شيبان من عَتَبِ[5]

أقامت نميرٌ بالحمى غير رغبة ... فكانَ الذي نالت نميرٌ من النهبِ
رؤوسٌ وأوصالٌ يزايل بينها ... سباعٌ تدلّت من أبانَيْن والهضْبِ[1]
لنا وقَعاتٌ في نميرٍ تتابعت ... بضيمٍ على ضيمٍ ونكبٍ على نكبِ
وقد علمت قيسُ بن عيلان كلُّها ... وللحرب أبناءٌ بأنا بنو الحربِ
ألم ترهم طُرّاً علينا تحزّبوا ... وليس لنا إلا الرُّدَيْنيّ من حزبِ
وإنا لنقتادُ الجيادَ على الوجى ... لأعدائنا مَن لا مُدانٍ ولا صَقْبِ
ففي أي فجٍّ ما ركزنا رماحنا ... مخوفٍ بنصب للعِدا حين لا نصبِ

حيث يفتخر بقومه مبرزًا شجاعتهم في قتال "بني نمير"، وقد انهزموا أمام كتائبهم، وغدت رؤوس وجثث بني نمير طعاما للنسور والسباع.

(1)- أبو الفرج الأصفهاني: كتاب الأغاني، ج 13، ص 129 - 130.

ج- الرثاء:

الرثاء من الأغراض الشعرية التقليدية في الشعر العربي القديم، وهو تعداد لمآثر الميت، ووصف الحزن عليه، والجزع لفقده وبيان مكانته، وأثره في المجتمع الذي يعيش فيه. وقد كان الشعراء يرثون ذوي المكانة الموموقة من الخلفاء والوزراء وقادة الجيش.

وهو من الموضوعات التي نظم فيها شعراء الاتجاه المحافظ العربي، في العصر العباسي، ومن أشهر المراثي في هذا الاتجاه، قصيدة "الحسين بن مطير" في رثاء "معن بن زائدة الشيباني"، التي يقول فيها: (1)

لِتَبْكِكَ أَحْزَانٌ وسابقُ عَبْرَةٍ
أَرَنَ دَماً مِنْ داخِلِ الجَوْفِ مُنْقَعا

تَجَرَّعْتُها مِنْ بَعْدِ مَعْنٍ بِمَوْتِهِ
لأَعْظَمَ منها ما احْتَسَى وتَجَرَّعا

ومِنْ عَجَبٍ أَنْ بِتُّ بالرُّزْءِ ثاوِياً
وبِتُّ بما خَوَّلْتَنِي مُتَمَتِّعا

ولو أَنَّني أَنْصَفْتُكَ الوُدَّ لم أَبِتْ
خِلافَكَ حَتَّى نَتْطَوِي فى الرَّدَى معا

أَلِمَّا بِمَعْنٍ ثُمَّ قُولاَ لِقَبْرِهِ
سَقَتْكَ الغَوادى مَرْبَعاً ثُمَّ مَرْبَعا

فيا قَبْرَ مَعْنٍ كنت اول حفرةٍ
من الأرضِ خُطَّتْ لِلسَّماحَةِ مَضْجَعا

ويا قَبْرَ مَعْنٍ كيفَ وَارَيْتَ جُودَهُ
وقد كان منه البَرُّ والبَحْرُ مُتْرَعا

بَلَى قَدْ وَسِعْتَ الجودَ والجُودُ مَيِّتٌ
ولو كان حَيًّا ضِقْتَ حَتَّى تَصَدَّعا

ولما مضَى مَعْنٌ مضى الجودُ وانْقَضَى
وأَصبحَ عِرْنِينُ المَكارِمِ أَجْدَعا

(1) الحسين بن مطير: شعر الحسين بن مطير الأسدي، تقديم حسين عطوان، دار

وهي من القصائد المشهورة في فن الرثاء، وقد وصفت بأنها من أقوى قصائد الرثاء في الشعر العباسي. خاطب فيها قبر معن بن زائدة في مشهد بكائي محزن استطاع من خلاله أن يؤثر في عاطفة السامع بتلك المعاني المبتكرة التي جعلته يحظى بعنايته وتقدير النقاد.

ويرثي مروان بن أبي حفصة معن بن زائدة، فقال: (1)

مَضَى لِسَبِيلِهِ مَعْنٌ وأَبْقَى مَكارِمَ لَنْ تَبِيدَ وَلَنْ تُنَالاَ
كأَنَّ الشَّمْسَ يَوْمَ أُصِيبَ مَعْنٌ مِنَ الإِظْلاَمِ مُلْبَسَةٌ جِلاَلاَ
هُو الجَبَلُ الذى كَانَتْ نِزَارٌ تَهَدُّ مِنَ العَدُوِّ بِهِ الجِبَالاَ
وَعُطِّلَتِ الثُّغُورُ لِفَقْدِ مَعْنٍ وَقَدْ يُرْوِى بِها الأَسَلَ النِّهالاَ
وأَظْلَمَتِ العِرَاقُ وأَوْرَثَتْهَا مُصِيبَتُـهُ المُجَلِّلَةُ اخْتِلاَلاَ
وظَلَّ الشَّامُ يَرْجِفُ جَانِبَاهُ لِرُكْنِ العِزِّ حِينَ وَهَى فَمَالاَ
وكادَتْ مِنْ تِهَامَةَ كُلُّ أَرْضٍ ومِنْ نَجْدٍ تَزُولُ غَداةَ زَالاَ

وهذه القصيدة من أفضل مراثيه في "معن بن زائدة الشيباني"، وكان مروان مقربا من هذا القائد الذي كان يكرمه ويعطيه مالا كثيرا. ولذلك يصفه بأفضل الصفات ويتفجع بفقده، وتتفجع معه المكارم، وتظلم الشمس، وتعطل بفقده الثغور، ويحل الظلام على العراق، والشام يرجف، وكادت تهامة أن تزول.

(1)- مروان بن أبي حفصة: ديوان مروان بن أبي حفصة، ص 79.

د_ الهجاء:

الهجاء نقيض المدح، وهو فنٌّ من فنون الشعر العربي، ظهر في العصر الجاهلي، مثله مثل الفنون الأخرى. وموضوعه هو التعريض بالخصم وتشويه وذكر عيوبه النفسية منها والجسدية، ولعل ذكر العيوب النفسية كالبخل والجبن والكذب، يكون أشد إيلاما للمهجو.

ويعد الشاعر "ابن هرمة"، من أصحاب المدرسة الأصيلة، الذين بقوا على تقاليد الشعر القديم. وقد عرف "ابن هرمة" بهجائه الشديد لخصومه "النزاريين"، الذين جفوا قومهم، وتحالفوا مع أعدائهم، فقال يهجوهم: (1)

فما عادت لذي لهنٍ رؤوسا ... ولا ضرّت بفرقتها نزارا
كغير السّوء تنطح من فلاها ... وترأم من يجدّ لها الشّفارا
ونحن الأكرمون إذا غشينا ... عياذا في البوارم واعترارا

وقال يهجو المسوّر بن عبد الملك المخزومي: (2)

قل للذي ظلّ ذا لونين يأكلني ... لقد خلوت بلحم عارم الكشم
إيّاك لا ألزمنْ لحيك من لجمي ... نكلاً يُنكّلُ قرّاماً من اللجم
يدقّ لحيك أو تنقاد منتبذا ... مشيَ المقيّد ذي القردان والحلم
إنّي إذا ما امرؤٌ خفّت نعامته ... إليّ واستحصدت منه قوى الوذم
عدّت في ملتقى أوداج لبّته ... طوق الحمامة لا يبلى على القدم

وكان هذا الرجل المهجو "المسوّر المخزومي"، يعيب شعر ابن هرمة، وينتقص من قيمته، إذ كان المسور عالما بالشعر والأنساب، فكانت هذه القصيدة هجاءً له، وتعريضا به. وكانت معاني هذا الهجاء بدوية الروح لم تخرج عن التقاليد الفنية.

---

(1) - ابن هرمة: شعر ابن هرمة القرشي، ص 118.
(2) - المصدر نفسه، ص 210.

هـ - الغزل:

الغزل نوع من الفنون الشعرية القديمة ظهر في العصر الجاهلي، يظهر الشعر نفسه، وفي العصر العباسي ظل موجودا بنوعين العذري والماجن، غير أن شعراء الاتجاه المحافظ بقوا ينظمون الغزل على طريقته البدوية التي لم تدنس بالمجون. وللحسين بن مُطير الأسدي قصائد في الغزل منها قصيدته "الجيمية"، التي يقول فيها: (1)

(١) كَأَنَّنَا يَا سُلَيْمَى لَمْ نُلِمَّ بِكُمْ
وَتَحْتَنَا عَلَسِيَّاتٌ مَلَاجِيجُ(١)

(٢) وَلَمْ نُكَلِّمْكِ وَالْحُسَّادُ قَدْ حَضَرُوا
وفي الكَلَامِ عَنِ الْحَاجَاتِ تَخْلِيجُ(٢)

(٣) وَلَمْ نَقُلْ يَوْمَ سَارَتْ عِيسُكُمْ عَنَقًا
وَالدَّوْسَرِيُّ بِجَذْبِ السَّاجِ مَجْرُوجُ(٣)

(٤) سُقَى سَقَى اللهُ جِيرَانًا لَنَا ظَعَنُوا
لَمَّا دَنَا مِنْ رِيَاضِ الْحَزْنِ تَهْيِيجُ(١)

(٥) لَمْ أَخْشَ بَيْنَهُمُ حَتَّى غَدَوْا حِزَقًا
وَاسْتَوْسَقَتْ بِهِمُ الْبُزْلُ الْعَنَاجِيجُ(٢)

(٦) فَاحْتَثَّ مِنْ خَلْفِهِمْ حَادِيهِمُ غَرِدًا
وَخُدِّرَتْ دُونَ مَنْ تَهْوَى الْهَوَادِيجُ(٣)

(٧) تِلْكُمْ دِيَارُكُمُ بِالْقَفِّ دَارِسَةً
يَسْتَنُّ فِيهَا عَجَاجُ الصَّيْفِ وَالْهُوجُ(٤)

(1) - الحسين بن مطير: شعر الحسين بن مطير، ص 145، 146.

وقد حظيت هذه القصيدة بإعجاب النقاد والدارسين؛ فرواها ابن المعتز في طبقاته، وقال عنها: "إنها تشعر كأنه الديباج بل نظم الدّر في حسن وصف وإحكام رصف" (1). وقد ظهرت روح البداوة في ألفاظها ومعانيها، ولم تخرج عن منهج الأوائل في عفتهم وأنفة تعاملهم مع المرأة كمحبوبة. ولربما كان هذا السبب في تقديم أبو عبيدة له وإعجابه بشعره، فقال عنه: "إنه ليقع من شعره بعد الشيء فيكثر تعجبي من كثرة بدائعه" (2).

(1)- ابن المعتز: طبقات الشعراء، ص 115.
(2)- المصدر نفسه، ص 114.

السمات والخصائص الفنية للاتجاه المحافظ

أولا- الطبع والبساطة: من ملامح الشعر لدى أصحاب الاتجاه المحافظ حرصهم على الطبع والبساطة، وهي من أهم مميزات شعر الجاهليين، ويصف الدكتور نجيب البهبيتي هذه المدرسة، بقوله: "تجري على جادة القدماء في نهج القصيدة، وموضوعها، وديباجتها، ولفظها، على تيسير مقبول كانت تدفع إليه حياة العصر. وهي لا تتكلف الصورة ولا تسرف في طلب البديع. وأصحابها يرون الجمال في قرب الشعر من الطبع، وقوة أسر اللفظ، وسلامة المعنى ودقته وحلاوته جميعا»(1).

وقد التزم شعراء هذا الاتجاه المحافظ بهذه المعايير البلاغية بشكل جعلهم لا يخرجون عن أصالة الشعر القديم، في أشكاله ومضامينه عامة، ويمكن أن نقدم مثالا على هذا قول الشاعر مروان بن أبي حفصة في مدح جعفر بن يحي البرمكي:(2)

أفي كل يوم أنت صبٌّ وليلةٌ ... إلى أمِّ بكرٍ لا تفيق فتقصرُ
أحبَّ على الهجران أكناف بيتها ... فيا لك من بيتٍ يُحَبُّ ويُهجَرُ
إلى جعفرٍ سارت بنا كلُّ جسرةٍ ... طواها سُراها نحوهُ والتهجُّرُ
إلى واسعٍ للمجتدين فناؤهُ ... ترَوه عطاياهم عليه وتُبكِرُ
أبرَّ فما يرجو حوادٌ لحاقهُ ... أبو الفضل سباق اللهاميم جعفرُ
وزيرٌ إذا ناب الخليفةَ حادثٌ ... أشار بما عنه الخليفةُ يصدرُ

فهذه الأبيات بسيطة في ألفاظها وعباراتها، ويصفها الدكتور نجيب البهبيتي بقوله: "فتشم منه ريح زهير خاصة، على تسهيل في اللفظ هو أثرٌ من الزمان الطويل يفرق بين الشاعرين»(3)، وسئل الأصمعي

---

(1)- نجيب محمد البهبيتي: تاريخ الشعر العربي حتى آخر القرن الثالث الهجري، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، مصر، 1950، ص 473.

(2)- مروان بن أبي حفصة: شعر مروان بن أبي حفصة، تحقيق، حسين عطوان ط3، دار المعارف، القاهرة، مصر، ص 51.

(3)- نجيب محمد البهبيتي: تاريخ الشعر العربي حتى آخر القرن الثالث، ص 473.

عن بشار بن برد ومروان أيهما أشعر؟ فقال: بشار، فسُئل عن السبب في ذلك، فقال: لأنّ مروان سلك طريقا كثُر من يسلكه فلم يلحق من تقدّمه، وشركه فيه من كان في عصره، وبشار سلك طريقا لم يسلك وأحسن فيه وتفرّد به، وهو أكثر تصرفا وفنون شعر وأغزر وأوسع بديعا، ومروان لم يتجاوز مذاهب الأوائل»(1).

ولا تقتصر خصائص أصحاب الاتجاه المحافظ على الطبع والبساطة فقط، فهناك خصائص كثيرة لا يمكن الإلمام بها منها ما يمس بناء القصيدة واتجاهات مقدماتها، ومنها ما يتعلق بالأغراض الشعرية، ومنها ما يتعلق باللغة الشعرية من أساليب وعبارات وصور فنية. وكل هذه الخصائص تتفق مع شعراء المدرسة الكلاسيكية في الشعر الجاهلي.

---

(1)- أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني، شرح الأستاذ سمير جابر، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1971، ج 3، ص 140.

الاتجاه المجدّد في الشعر العباسي:

دافع أصحاب الاتجاه المجدّد على الشعر المحدث في العصر العباسي، مثلما دافع المحافظون عن الشعر المحافظ. وقد كان أصحاب الاتجاه المجدد أغلبهم من أصول أعجمية، مثل ابن الأعرابي (ت 231 هـ)، الذي ينقل عنه قوله في التمييز بين الطريقتين (الاتجاهين) الشعريين: «إنما أشعار هؤلاء المحدثين مثل الريحان يُشمّ يومًا ويذوي فيُرمَى به، وأشعار القدماء مثل المسك والعنبر، كلما حرّكته ازداد طيبًا» (1)؛ من خلال هذا القول الموجز في المقارنة بين القديم والجديد نلمس تحيز ابن الأعرابي إلى أشعار القدماء والمحافظين، غير أنه يبدي إعجابه بالمحدثين، في نقده لشعر أبي العتاهية، فيقول لرجل أنكر عليه استحسانه لشعر أبي العتاهية: «... فوالله ما رأيت شاعرًا قط أطبع ولا أقدر على بيت منه، وما أحسب مذهبه إلا ضربًا من السحر» (2)؛ فهذا اعتراف من ابن الأعرابي بالمذهب الجديد لأبي العتاهية، وهو من الشعراء المولدين (المحدثين).

ثم أنشده قصيدة لأبي العتاهية، يقول فيها: (3)

قطعتُ منك حبائل الآمال ... وحططتُ عن ظهر المطيّ رحالي

ووجدتُ برد اليأس بين جوانحي ... فأرحتُ من حلٍّ ومن ترحال

ولما انتهى من القصيدة سأل الرجل قائلا: "هل تعرف أحدًا يحسن أن يقول مثل هذا الشعر؟ فقال له الرجل: يا أبا عبد الله، جعلني الله فداك؛ إني لم أردد عليك ما قلت، ولكن الزهد مذهب أبي العتاهية في شعره في المديح ليس كشعره في الزهد» (3). فلم يكتف ابن الأعرابي بإنشاد الزهد فقط بل أنشد الرجل قصيدة في المدح لأبي العتاهية

وهارون ماءُ المزن ينتفي به الصَّدَى ... إذا ما الصَّدِي بالريق غصّ حناجرُهْ

---

(1)- محمد بن عمران المرزباني: الموشّح في مآخذ العلماء على الشعراء، تح. محمد حسين شمس الدين، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1995، ص 286.

(2)- أبو الفرج الأصفهاني: كتاب الأغاني، ج 4، ص 16.

(3)- المصدر نفسه، ج 4، ص 16.

(4)- المصدر نفسه، ج 4، ص 16

وأما ابن قتيبة الدينوري (ت 296 هـ) فلم يكن منحازا للقديم والدليل على ذلك إلغاؤه لمعيار القدم أي الزمن وأنكر أن يكون التقدم معيارا لجودة الشعر والتأخر (الحداثة) دليلا على الضعف، فقال: "ولم أسلك فيما ذكرته من شعر كل شاعر مختارا له، سبيل من قلد، أو استحسن باستحسان غيره. ولا نظرت إلى المتقدم منهم بعين الجلالة لتقدمه، وإلى المتأخر منهم بعين الاحتقار لتأخره. بل نظرت بعين العدل على الفريقين، وأعطيت كلا حظه، ووفرت عليه حقه" (1)؛ ومثل هذا الموقف لم يكن ليصدر أمام تعصب علماء العربية لو لم يفرض الشعراء المحدثون أنفسهم في الساحة الأدبية. ولم يشأ ابن قتيبة أن يحط من أشعارهم بالنظر إلى العامل الزمني.

وأما الثعالبي (ت 429 هـ)، فنراه يفضل شعر المحدثين، ومن خلالهم الشعر العباسي كله على الشعر الأموي والإسلامي والجاهلي، فيقول: "كانت أشعار الإسلاميين أرق من أشعار الجاهليين، وأشعار المحدثين ألطف من أشعار المتقدمين، وأشعار المولدين أبدع من أشعار المحدثين، وكانت أشعار العصريين أجمع لنوادر المحاسن، وأنظم للطائف البدائع من أشعار سائر المذكورين" (2)؛ إذ يعد هذا النص النقدي للثعالبي أكثر صراحة في الميل إلى التجديد في الشعر العباسي، فكلما مضى عصر كان الشعر أرق وألف وأبدع، وأجمع للمحاسن واللطائف.

وهذه مجموعة من الأحكام النقدية حاول الثعالبي أن يبرز أهم الخصائص الفنية التي تميز بها شعر المحدثين والمولدين، وقدم مبررا لذلك بقوله: "لانتهائها إلى أبعد غايات الحسن، وبلوغها أقصى نهايات الجودة والظرف، تكاد تخرج

---

(1) ابن قتيبة الدينوري: الشعر والشعراء، تح. أحمد محمد شاكر، دار المعارف، القاهرة، مصر، 1958، ج1، ص 62.

(2) أبو منصور الثعالبي: يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، شرح وتحقيق مفيد محمد قميحة، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1983، ج1، ص ص 25 - 26.

من باب الاعجاب إلى الإعجاز، ومن حدّ التشعر إلى الشعر، فكأن الزمان ادّخر لنا من نتائج خواطرهم، وثمرات قرائحهم، وأبكار أفكارهم أتم الألفاظ والمعاني استيفاء. لأقسام البراعة، وأوفرها نصيبًا من كمال الصنعة ورونق الطلاوة »(1)؛ فهذه الخصائص الفنية يشتمل عليها شعر المحدثين أكثر من شعر القدماء، لأنه ولد ببيئة اجتماعية وثقافية غير البيئة الصحراوية البدوية التي نشأ فيها أشعار القدماء..

وقد سار ابن طباطبا العلوي (ت 322هـ) على نهج الثعالبي في نظرته إلى المحدثة الشعرية في العصر العباسي، فتكلم على شعر المولدين، وأفرد له بابًا في كتابه "عيار الشعر"، قال فيه: "وسنعثر في أشعار المولدين بمحاسن استفادوها ممن تقدمهم، ولطفوا في تناول أصولها منهم، ولبسوها على من بعدهم، وتكثروا بأبداعها فسلمت لهم عند ادّعائها، لِلَطيف سحرهم فيها، وزخرفتهم لمعانيها »(2)؛ وهذا الحكم النقدي شهادة من ابن طباطبا للشعراء المحدثين بالبراعة في استحداث المعاني الجديدة التي يتفوّقون بها على أصحاب الاتجاه المحافظ. ويكمن التحدي في هذه القضية بالذات فالنقاد في العصر العباسي يركزون عليها اهتمامهم. وهذا ما قصده ابن طباطبا حين قال: " والشعراء في عصرنا إنما يثابون على ما يستحسن من لطيف ما يوردونه من أشعارهم، وبديع ما يغربون من معانيهم، وبليغ ما ينظمونه من ألفاظهم ومضحك ما يوردونه من نوادرهم، وأنيق ما ينسجونه من وشي قولهم، دون حقائق ما يشتمل عليه من المدح، والهجاء، وسائر الفنون التي يصرفون القول فيها »(3).

وللثعالبي كلام كثير حول قضية الشعر المحافظ والمحدث، وكان من أهم النقاد

---

(1)- أبو منصور الثعالبي: يتيمة الدّهر في محاسن العصر، ج1، ص26.

(2)- ابن طباطبا العلوي: عيار الشعر، شرح وتحقيق. عباس عبد الساتر، ط2، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ص14.

(3)- المصدر نفسه. ص15.

الذين أعطوا الشعر المحدث حقّه في الظهور والبروز على نظيره التقليدي لمواكبته لكل معطيات العصر العباسي الثقافية والحضارية. فنراه يترجم للعديد من الشعراء المحدثين في كتابه "عيار الشعر".

وكان تدخل الخليفة في الممارسة النقدية من أهم العوامل التي أتاحت الفرصة لمذهب المحدثين أن يتفوق في بعض الأحيان على المذهب المحافظ؛ فمن ذلك تسوية العطاء بين شعراء المذهبين، فيروي عبد الرحمن بن الجوزي (ت597هـ) عن العتبي أنه قال: "رأيت مروان بن أبي حفصة واقفا بباب الجسر، كئيبا حزينا آسفا ينكت بسوطه في معرفة دابته، فقيل له: يا أبا السمط، ما الذي نراه بك؟ قال: أخبركم بالعجب: مدحت أمير المؤمنين فوصفت له ناقتي من خطامها إلى خفيها والقيافي من اليمامة إلى بابه أرضا أرضا، ورملة رملة، حتى أشفيت منه على غنى النفس والدهر، جاء ابن بياعة العجاجير - يعني أبا العتاهية - فأنشده بيتين فضحضع بهما شعري، وسوّاه بي في الجائزة فقيل له: وما البيتان؟ فأنشد: (1)

إنّ المطايا تشتكيك لأنّها ... قطعت إليك سبايبا ورمالا

فإذا رحلن بنا رحلن بخفّة ... وإذا رجعن بنا رجعن ثقالا

من خلال هذا النص النقدي يبدو أن المذهب المحافظ في صراع مع المذهب المجدد، يمثل مروان بن أبي حفصة المحافظين، ويمثل أبو العتاهية مذهب المحدثين. وقد استطاع هذا الأخير أن يرضي ذوق الخليفة مثله مثل مروان الذي يحتذي مذهب القدماء. وفي الأخير يمكن القول إن العصر العباسي كان من أهم العصور الذهبية للشعر العربي في مساره الفني، عرف الذوق الشعري فيه قفزة نوعية في موضوعاته وفنونه وخصائصه الفنية، وإضافات جديدة طبعت هذا الشعر بملابسات التطور التاريخي والاجتماعي والثقافي.

(1) - عبد الرحمن بن الجوزي: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، تح. محمد عبد القادر عطا، وآخرون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (د.ت)، ج10، ص 240-241.

• المقدمات الجديدة في الاتجاه المحدث الجديد:

1- المقدمات الخمرية:

هي التي تصف «الخمر والساقية، وما تحدثه الخمر من قتل للهموم ونفي للأحزان وإدخال للسرور في النفوس، مترسمًا خطا أبي نواس دون أن يلحق به»(1). ولابن الرومي نماذج منها كثيرة، وجاءت هذه المقدمة «الخمرية» مرتبطة بموضوع المدح المزوج بالفخر، قال فيها على وزن الطويل: (2)

طَربتُ إلى رَيْحانةِ الأنفِ والقلبِ ... وأعمالها بين العوازف والشَّرْبِ(2)
ولا عيشَ إلا بين أكوابِ قهوةٍ ... تَوارَثَها عَقْبٌ من الفرس عن عقبِ
من الكُمْت قبل المزج، صهباءُ بعدَهُ ... سليلةُ جُونٍ غير كُمْتٍ ولا صُهبِ(3)
سُلالةُ كرمٍ شارفٍ غير أنها ... عُلالةُ عود من دِنانِ القُرى ثَلْبِ(4)
تأتَّتْ أكفُّ القاطفين قِطافها ... فسالت بلا عَصْرٍ وذرَّت بلا عَصْبِ
أطافت بها الأيامُ حتى كأنها ... حُشاشةُ نفس شارفتْ منقضى نحبِ(5)
لها منظرٌ في العين يشهدُ حسنُهُ ... على مَخْبرٍ يُهدي السرورَ إلى القلبِ
تردُّ صفاءَ العيش مثلَ صفائها ... وتكشفُ عن ذي الكرب غاشيةَ الكربِ
جلاها من الأطباع طولُ ثوائها ... وإمرارُها الأحقابَ حِقباً إلى حقبِ(6)
فلو رُفعتْ في رأس عليا لاهتدى ... بكوكبها السارونَ في الشرق والغربِ
غنيٌّ عن السريحان مجلسُ شَرْبها ... بنشرٍ كنشر المسك في مُحتوىً نهبِ
ولم ترَ موموقاً إلى النفس مثلها ... تُشَمُّ فتُلقى بالعبوس وبالقَطْبِ
يناضل عنها الماء حين يَشُجُّها ... نفيٌّ لها مثلُ الدَّبا لجَّ في الوَثْبِ(7)
لها مَكْرعٌ سهلٌ يخبِّر أنها ... ذَلول وفيها سَورةُ الجامح الصعبِ(8)
سأعْصِي إليها اللَّومَ، في بطنِ روضةٍ ... كساها الحيا نَوْراً كأدريةِ العَصْبِ(9)
وكم مثلها من بنتِ كرمٍ جلوتُها ... على كلِّ خِرقٍ ماجدِ الجَدِّ من صحبي

حيث يصف طربه إلى الخمرة بأنفه وقلبه معًا، ويذكر ما تخلفه من أثر في رؤوس شاربيها ونفوسهم، ويزعم أنها تعيد الصفاء إلى النفس، وتزيل هموم المهمومين، إلى غير ذلك من الأوصاف في بقية القصيدة.

(1) - سامي يوسف أبو زيد: ابن الرومي قراءة نقدية في شعره، ص 544.

(2) - ابن الرومي: ديوان ابن الرومي، ج1، ص 129.

ويجعل المقدمة خمرية في المدح حتى يزينه بها. لأن حديث الخمر يزيد على السامع وإن لم يكن من شاربيها. ففي قصيدة يمدح بها

أحمد بن عيسى بن شيخ [الكامل] (1)

ومُدامةٍ أغنَتْ عن المصباحِ ... يلقى المساءَ إناؤُها بصَباحِ
لطفتْ مسالكها وخُصَّ محلُّها ... فكأنها انشقَّتْ من الأرواحِ
تجلو السرور على الفتى في قلبه ... والحسنَ في الكاساتِ والأقداحِ
أعَليُّ: لا أخطأتَ قصدَ سبيلها ... ورُزِقْتَ فيها طاعةَ النُّصاحِ
أعليُّ: لا فارقْتَ ظلَّ سعادةٍ ... أبداً، ولا أخطأتَ بابَ فلاحِ
بَكَر الشَّبابُ على الحياة وليتَهُ ... بعْدَ البُكُور مُساعِفٌ برواحِ (1)
هيهات إلا بالشَّمُول فإنها ... نَافي الهُمُوم وجالِبُ الأفراحِ (2)
فامزج غِنَاءَ المحْسِنَاتِ لكأسِهَا ... بغناء عُجْم في الجنَانِ فِصَاحِ
تَهْتَزُّ من طَرَبٍ إذا ما هَزَّهَا ... فوقَ الغُصُونِ الخُضْرِ نفْحُ رياحِ
خُذْهَا ولا تخسَرْ لذيذ مَذَاقِهَا ... ونسيمها، يا طالب الأرْباحِ
بِكْراً تَردُّ على الكبير شبَابَه ... فتراه بين صَبَابَةٍ ومَرَاحِ
حسناءَ تكْسو من محاسنها الفتى ... فتراه أحْمَرَ أزْهَرَ المِصْبَاحِ
مِنْ كَرْمَةٍ تَهَبُ المكارمَ للفتى ... فتراهُ بين شجاعةٍ وسَمَاحِ

ومن المقدمات الخمرية قوله في مدح محمد بن عبد الله، وهي من بحر الطويل: (2)

ألا نَسِّيا نفسي حديثَ البلابلِ ... بمشمولة صفراءَ من خَمرِ بابلِ (5)
فما العيش إلا في ندامِ سُلافةٍ ... تنادَمها العصران غير ثمائلِ
نضا الدهرُ عن أسآرها جُلَّ لونها ... فغادرها من لونها في غلائلِ
سرابيةً آليةً تصرع الشذا ... وترفع من شخص القذى المتضائل (6)
ثوت تصطلي شمس الظهائر برهةً ... إلى أن أفادت لونَ شمس الأصائلِ
إذا ما تمشت في عِظام ابن كبرةٍ ... مشى لَيِّنَ الأوصال رِخو المفاصلِ
ترد له غصنَ الشباب وقد ذوى ... رطيباً كغصن البانة المتمايلِ
إذا نزلت بالهم في دار أهلهِ ... شكى الضيم شكوى آهلٍ ضيم نَازلِ
بماءٍ جَلتْ عن جُرِّ صفحته القذى ... حريقَ لها ذيل كَميش الذلاذل (7)

---

(1) - ابن الرومي: ديوان ابن الرومي، ص ص 349 - 350.
(2) - المصدر نفسه، ص 146.

ومهما كانت الأوصاف التي أضفاها الشاعر ابن الرومي على "الخمر"، وأثرها في نشاربها، فإنها علامة على تأثره بالموروث الشعري القديم، ومرآة تعكس جانبا من جوانب حياته، يقول الدكتور سامي أبو زيد في هذا: " تعد هذه المقدمات نتيجة الخطوب التي ألمت بالشاعر؛ حرمان ملأ عليه حياته، وتشاؤم أطبقت عليه، فأقبل على مجالسها بما فيها من غناء وشراب، لعله ينسى همومه ويحدد بها نشابه»(1).

هذا فيما يخص الجانب الاجتماعي، وما صاحبه من موجات المجون في المجتمع العباسي. أما فيما يتعلق بالفن الشعري، فإن ابن الرومي قد جدد بعض الشيء في هذه المقدمات الخمرية التي سار فيها على طريق الشعراء السابقين، ويعلق الدكتور سامي أبو زيد على هذا بقوله: " على الرغم من التسام هذه المقدمات بالروح التقليدية فإنه استطاع أن يلونها بألوان مستوحاة من روح الحضارة التي عاش في كنفها، وبذلك جمع بين التجديد والتقليد "(2).

هذه أهم الملامح الفنية للمقدمة الخمرية في شعر ابن الرومي، وهي تعد مرحلة أولى للتجديد لأنها جاء ليريد الموضوع الذي في أغلب القصائد الشعرية.

---

(1)- سامي يوسف أبو زيد: ابن الرومي قراءة نقدية في شعره، ص 545.
(2)- المرجع نفسه، ص 545.

مقدمة وصف الربيع:

لابن الرومي قصيدة واحدة، يبدأها بوصف الربيع، عندما يكسو الأرض بألوان زاهية وجميلة، تبهج الناظر إليها. وهي مقدمة لمدح الحسن بن عبيد الله بن سليمان، قال فيها: (1)

ضحك الربيعُ إلى بكا الديمِ	وغدا يُسَوّي النبت بالقممِ
من بين أخضرَ لابس كُمَماً	خُضْراً، وأزهرَ غير ذي كُمَمِ
مُتلاحِق الأطرافِ مُتسقٍ	فكأنّه قد طُمَّ بالجَلَمِ[4]
مُتبلّجِ الضَّحواتِ مُشرِقها	متأرّجِ الأسحار والعَتَمِ
تَجِدُ الوحوشُ به كفايتَها	والطيرُ فيه عتيدةُ الطُعَمِ
فظباؤهُ تُضحي بمُنْتَطَحٍ	وحمامُه تُضحي بمختصمِ
أحذى الأميرُ ربيعنا خُلُقاً	يهمي إذا ما البرقُ لم يُشَمِ
فالقطرُ ضربةُ لازمٍ قسماً	والسحوُ فيه تجلّةُ القسمِ

إن الربيع لكالشباب وإن الصيف يكسعه كالهرم

وابن الرومي بارع في فن الوصف وبخاصة إذا تعلق بالطبيعة. وفي هذه المقدمة يصف جمال الطبيعة فيما تقدمه من عطور ورياحين وبساتين ذات بهجة؛ "يصف ألوانها، ويتحدث عن روائحها العطرة التي تنبعث منها ليلا، وعن قطرات الندى التي تتناثر على أوراقها صباحا، ويشبهها بالجواهر التي تتزين بها الأعشاب. وقد خيل إليه أن الربيع هو شباب الزمان وأن الصيف هو خاتمته"(2)

وهذا نوع من الإسقاط لمظاهر الطبيعة، على حياة الانسان، فيه محاولة لتشخيصها وجعلها حيّة متحركة مثل البشر. حيث يتكئ أثر أبي تمام في هذا الوصف المعتمد على التشخيص. ثم يختم هذه المقدمة بربط الربيع بمرحلة الشباب، وربط الصيف بمرحلة الهرم والشيخوخة.

---

(1)- ابن الرومي: ديوان ابن الرومي، ج 3، ص 301.

(2)- سامي يوسف أبو زيد: ابن الرومي قراءة نقدية في شعره، ص 546.

(3)-

مقدمة وصف السفينة:

وصف السفينة من المقدمات الجديدة والمستحدثة في شعر ابن الرومي، غير أنها قليلة الورود في شعره، نذكر منها ما جاء في قصيدة يمدح بها علي بن الفياض، وصف فيها رحلة عبر النهر، يقول فيها: (1)

ذكرتُكَ حين ألقت بي عصاها الـ ... ـنوى يوماً بنهر أبي الخصيبِ(٥)
وقد أرستْ بنا في ضفَّتيه الـ ... ـجواري المنشآت مع المغيبِ(٦)
غدونَ بنا ورُحْنَ محمَّلاتٍ ... قلوباً مُوقَرات بالكُروبِ
تجوز بنا البحار إذا استقلَّتْ ... وتُسلمُها الشَّمالُ إلى الجنوبِ
وبين ضلوعها أبناءُ شوقٍ ... نأتْ بهم عن البلد الرحيبِ

وفيها يقول:

دَخَلْنَا من بنات البحر جونا ... تهادى بين شبَّان وشيبِ(٤)
نواجٍ في البطائح ملقِيَاتٌ ... حيازمَها على الهول المهيبِ(٥)
مُزمَّمَةُ الأواخرِ سائراتٌ ... على أصلابها شَبَهَ الدبيبِ(٦)
تكادُ إذا الرياحُ تعاورتْها ... تفوتُ وفودَها عند الهبوبِ
مسخرةً تجوب دجى الليالي ... بمثل الليل كالفرس الذَّنوبِ
أبت أعجازُها بمقدَّماتٍ ... لها إلا مطاوعةَ الجنُوبِ
غَنِينَ عن القوادم والهوادي ... وعن إسْرَاجِهنَّ لدى الركوبِ(٧)
حططنَ بواسطٍ من بعد سبعٍ ... وقد مال الشروقُ إلى الغروبِ(٨)
ووافتنا رياحٌ حاملاتٌ ... إلينا نشرَ لابسةِ الشُّرُوبِ(٩)

يصف ابن الرومي في هذه المقدمة، رحلة قام بها في نهر "أبي الخصيب" بالبصرة، كما يصف السفينة (الجواري المنشآت)، ويصور حالته النفسية إذ كان يخشى ركوب السفن: (قلوبًا موقرات بالكروب)، وهو مشوق إلى البر. وفي هذه المقدمة يصف السفينة بأوصاف من صفات الإبل: (نواح في البطائح)، (مزممة الأواخر)، (سائرات على أصلابها)... (أبت أعجازها)، ويعلق الدكتور سامي أبو زيد على هذا الوصف بقوله: "وهذا وصف تقليدي للسفينة من البيئة البدوية" (2)، وفي هذا دلالة على أن مخيلة ابن الرومي لا تزال مشدودة إلى البيئة الصحراوية البرية، ولم تلم بعد بمعطيات البيئة البحرية الجديدة عليها.

(1)- ابن الرومي: ديوان ابن الرومي، ج1، ص 225 - 226.
(2)- سامي أبو زيد: ابن الرومي قراءة نقدية في شعره، ص 547.

4- المعاني الجديدة:

يتفق أغلب الدارسين على أن حياة العرب قد طرأت عليها أشياء كثيرة مستجدة، مع انتقالهم من العصر الأموي إلى العصر العباسي، وفي كل مجالات الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية. وكان الشعر أحد مجالات الحياة التي طرأت عليها أمور مستحدثة؛ فقد ظهرت في لغته ومعانيه، والمعاني الجديدة، هي "تلك المعاني التي استقل المحدثون بابتداعها، ولم يسبقهم إليها جاهلي ولا إسلامي، وتلك لعمر الحق كثيرة كثرة المشاهدات التي أحدثتها الحضارة متعددة تعدد العادات التي أوحت بها المدنية مبتكرة هذا الفكر المتدفق الذي قرأ حكمة الهند، وتأدب بأدب الفرس، وتأمل تأمل اليوناني الحكيم"(1)؛ وكان هذا الابتكار نتيجة امتزاج العنصر العربي مع الفرس، واليونانيين امتزاجا ثقافيا، أدى إلى انتقال المعاني إلى الشعر العربي وإثرائه بما هو جديد، غير مألوف في الفكر العربي.

ومن المعاني التي لم يعرفها المتقدمون، قول بشار بن برد: (2)

يا قوم أذني لبعض الحي عاشقة ... والأذن تعشق قبل العين أحيانا
قالوا بمن لا ترى تهذي فقلت لهم ... الأذن كالعين توفي القلب ما كانا

وقول أبي نواس: (3)

أيها العائبان باللوم لوما ... لا أذوق المدام إلا نسيما
نالني بالملام فيها إمام ... لا أرى لي خلافه مستقيما
فاصرفاها إلى سواي فإني ... لست إلا على الحديث نديما

---

(1)- محمود مصطفى: الأدب العربي وتاريخه في العصر العباسي، ص 334.
(2)- بشار بن برد: ديوان بشار بن برد، ج 4، ص 194 - 195.
(3)- أبو نواس: ديوان أبي نواس، ص 29.

كُبْرُ حَظِّي منها إذا هي دارت ... أن أراها، وأن أشمّ النسيما
فكأني وما أزيّن منها ... قَعَدِيٌّ يزيّن التحكيما
كلّ عن حمله السلاح إلى الحر ... ب فأوهى المطيق ألا يقيما

ومن جديد المعاني ما اخترع أبو تمام، في قوله: (1)

وإذا أراد الله نشر فضيلةٍ ... طويت أتاح لها لسان حسود
لولا اشتعال النار فيما جاورت ... ما كان يُعرف طيب عرف العود

وقوله في الرثاء: (2)

بني مالك قد نبّهت خامل الثرى ... قبور لكم مستشرفات العالم
غوامض قيد الكف من متناول ... وفيها عُلاً لا يُرتقى بالسلالم

وقول أبي تمام أيضا: (3)

وإذا المجد كان عوني على المر ... ء تقاضيته بترك التقاضي

وقوله أيضا: (4)

ليس الحجاب بمقصٍ عنك لي أملاً ... إنّ السماء ترجّى حين تحتجب

ولابن الرومي معان جديدة، منها قوله: (5)

عيني لعينك حين تنظر مقتلٌ ... لكن لحظك سهمٌ حتفٍ مرسلُ
ومن العجائب أن معنىً واحداً ... هو منك سهم وهو مني مقتلُ

---

(1)- الخطيب التبريزي: شرح ديوان أبي تمام، ج1، ص 213. دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1993، ج1، ص 528.

(2)- أبو هلال العسكري: ديوان المعاني، شرح أحمد حسن بسج.

(3)- الراغب الأصفهاني: محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، تح. سجيع الجبيلي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1971، ج2، ص 214.

(4)- الامام الماوردي: منهاج اليقين شرح أدب الدنيا والدين، تح. محمد العزاوي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1971، ج2، ص 322.

(5)- السراج البغدادي: مصارع العشاق، تح. محمد حسن اسماعيل، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ج1، ص 151.

ومن المعاني المستحدثة في شعر ابن الرومي، قوله يعاتب من يزداد بُعدًا على التودد: (1)

تودّدتُ حتى لم أدع متودّدًا ... وأفنيتُ أفلاهي عتابًا مُردّدا
كأني أستدعي بك ابن حنية ... إذا النزع أدناه من الصدر أبعدا

وقوله في الغزل: (2)

نظرتْ فأوصدت الفؤاد بلحظها ... ثم انثنتْ عنه فظلّ بهيم
فالموت إن نظرتْ وإن هي أعرضت ... وقعُ السهام ونزعهنّ أليم.

ومن جديد المعاني المخترعة في العصر العباسي، قول أبي العُريان: (3)

لمستُ بكفّي كفّه ابتغي الغِنى ... ولم أدرِ أنّ الجود من كفّه يُعدي
فلا أنا منه ما أفاد ذوو الغِنى ... أفدتُ وأعداني فأفسد ما عندي

ومن ذلك قول المثنّى: (4)

من مُبلغ الأعراب أني بعدها ... جالستُ رسطاليس والاسكندرا
وسمعتُ بطليموس راوي كُتبه ... متملكًا متبدّيا متحضّرا
ولقيتُ كلّ الفاضلين كأنما ... ردّ الإله نفوسهم والأعصُرا
نسقوا كما نسق الحساب مقدّما ... وأتى فذلك إذ أتيتُ مؤخّرا

ومن المعاني التي لم تكن موجودة عند القدماء من شعراء الجاهلية، والعصر الاسلامي والأموي، "رثاء الصلوب"، حيث لم تكن شائعة في أيامهم

---

(1)- ابن رشيق القيرواني: العمدة في محاسن الشعر وآدابه، تح محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (د.ن)، ج1، ص 179.
(2)- المصدر نفسه، ج1، ص 179.
(3)- الراغب الأصفهاني: محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، ج2، ص 253.
(4)- ابن جرير الطبري: تاريخ الطبري، تقديم صدقي جميل العطار، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 2017، ج7، ص 264.

وإن حدثت فلم يحدث آن رثى شاعرٌ رجلا مصلوبًا. ومن هذا قول ابن الأنباري في ابن بقية: (1)

كأنَّ الناسَ حولك حين قاموا ... وُفُودُ ندى أيّام الصِّلاتِ
كأنك قائمٌ فيهم خطيبًا ... وكلّهمُو قيامٌ للصّلاةِ
ولمّا ضاق بطن الأرض عن أن ... يضمّ عُلاك من بعد الوفاةِ
أصاروا الجوَّ قبرك واستعاضوا ... عن الأكفان ثوبَ السافياتِ

هذه النماذج عبارة عن أمثلة للمعاني المستحدثة في العصر العباسي، والتي لم تكن متداولة في العصور التي سبقته. وهي كثيرة لا يمكن حصرها بالنظر إلى التراث الشعري الضخم. وهي شاهد على مسار التجديد الفكري في العصر العباسي.

(1) - شمس الدين الذهبي: سير أعلام النبلاء، تح. شعيب الأرنؤوط وابراهيم الزيبق، ط1، مؤسسة الرسالة، بيروت. لبنان، 1983، ج15، ص117.

- التجديد في معاني الهجاء نموذجا:

من الأسباب التي جعلت الهجاء يشيع في المجتمع العباسي، إضافة طابع شعبي قريب من العامة، وقد كانت هذه الصفة ملمحًا من ملامح التجديد في موضوع الهجاء، كما يرى الدكتور محمد مصطفى هدارة في قوله: "ومن التطورات الجديدة التي نلاحظها أيضا على فن الهجاء في القرن الثاني ميله إلى الشعبية في معانيه وفي أسلوبه، لأن صوغ الهجاء في قالب شعبي يجعل معانيه قريبة من نفوس الجماهير مما يكفل له انتشارا واسعا"(1). ومن نماذج الهجاء الشعبي قصيدة للشاعر "أبان اللاحقي" يهجو فيها جاره محمد بن خالد عندما تزوج "عمّارة" بنت عبد الوهاب الثقفي طمعًا في مالها، يقول فيها: (2)

لما رأيتُ البَزَّ والشَّارَهْ ... والفَرْشَ قد ضاقتْ بِهِ الحارَهْ

واللوزَ والسّكّرَ يُرمى بِهِ ... مِن فَوْق ذى الدار وذى الدّارَهْ

وأحضَرُوا المُلْهينَ لم يَتْركوا ... طَبْلاً ولا صاحِبَ زَمّارَهْ

قلت : لماذا ؟ قِيلَ : أعجوبةٌ ... محمد زُوِّجَ عمّارَهْ

لا عمر اللهُ بها بَيْتَه ... ولا رأتْهُ مُدْرِكاً ثارَهْ

ماذا رأت فيه ماذا رَجَتْ ... وهى من النِّسوان مُخْتارَهْ

أسْوَدُ كالسفّودِ يُنسى لدى ... التنُّورِ أو مِحراك قَيّارَهْ

يُجرى على أولادِه خَمْسَةً ... أرغَفَةً كالرِّيش طَيّارَهْ

وأهلُه فى الأرض من خَوْفِهِ ... إن أفرطوا فى الأكل سَيّارَهْ

وَيْحَكِ فرِّى واعصبى ذاكَ بى ... فهذه أختُك فَرّارَهْ

إذا غفا باللَّيْلِ فاستيقظى ... ثم اطفرى إنَّكِ طَفّارَهْ(2)

ويعلق الدكتور مصطفى هدارة على هذه القصيدة بقوله: "يتضح لنا من هذه القصيدة بساطة التعبير وسهولة الألفاظ واختيارها من لغة الحياة اليومية"(3). وهذه البساطة في اللغة تعطي ميزات خاصة للهجاء عند أبان اللاحقي.

---

(1) - محمد مصطفى هدارة: اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري، ص ص 421 - 422.

(2) - أبو بكر الصولي: كتاب الأوراق - قسم أخبار الشعراء، نشره "هيورث دن"، ط1، مطبعة الصاوي، الجواميز، مصر، 1934، ص 24.

(3) - محمد مصطفى هدارة: المرجع السابق، ص 422.

1- الاتهام بالزندقة وشرب الخمر والشذوذ:

ظهرت معاني الاتهام بالزندقة وشرب الخمر في الهجاء العباسي، ويصفها الدكتور مصطفى هدارة بأنها: «ظاهرة جديدة في هجاء القرن الثاني، وهي اهتمام الشعراء بتركيز هجائهم على الانحراف الديني عند المهجو وشذوذه بل زندقته أحيانا» (1). وأصبح الشاعر يتصيد لخصومه هفواتهم العقدية، وسقطاتهم الاخلاقية، التي لحظ من فحمة المهجو، حتى ولو لم تكن موجودة فيه. وقد كان هذا العصر قد شهد انتشار موجة كبيرة من المجون والزندقة، رغم العقوبات الشديدة التي يسلطها الخلفاء على الزنادقة بشكل خاص.

ومن هذا القبيل هجاء أبي نواس لإبراهيم النظام شيخ المعتزلة، بشرب الخمر والزندقة والشذوذ، في قوله: (2)

قُولا لابراهيم قولاً هُتْرا ... غلبتني زندقة و كفرا
إن قلتُ ما تشرب؟ قال: خمرا ... أو قلتُ ما تنكح؟ قال: دُبرا
أو قلتُ ما تترك؟ قال: بَرّا ... أو قلتُ ما ترهب؟ قال: بحرا
أو قلتُ ما تقول؟ قال: شرّا ... أصلاه ربّي لهبًا وجمرا

فقد وجه لابراهيم النظام هجاء مقذعا يتهمه فيه بتفوقه على في الزندقة والكفر، في أسلوب ساخر يعتمد فيه أبو نواس على الاستفهام ويقدم الاجابة على النحو الآتي: ما تشرب؟ قال: خمرا، ما تنكح؟ قال: دبرا ما تترك؟ قال: برّا، ما ترهب؟ قال: بحرا، ما تقول؟ قال: شرّا.. بحيث يجمع خصال الشر والفسوق والشذوذ، ويلصقها بكبير فرقة المعتزلة إبراهيم النظام الذي هو في مكانة العلماء. وهذا ما يزيد في قوة الهجاء وتأثيره.

---

(1)- محمد مصطفى هدارة: اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري، ص 426.
(2)- أبو نواس: ديوان أبي نواس الحسن بن هانئ، تحقيق أحمد عبد المجيد الغزالي، (د.ط)، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، (د.ت)، ص 530.

ومن صور الهجاء الديني، ما تبادله "بشار بن برد" و "حماد عجرد"، حيث رمى كل منهما صاحبه بالزندقة، ومن ذلك قول بشار يتهم حماد بالعقيدة الثنوية: (1)

ابن نهيٍ رأسي عليّ ثقيلُ واحتمالُ الرؤوس خطبٌ جليلُ
ادعُ غيري إلى عبادة الاثنـ ـين فإني بواحدٍ مشغولُ
يا ابن نهيٍ برئتُ منك إلى اللـ ـه جهاراً وذاك مني قليل

ويروى أن حماد عجرد قد أشاع هذه الأبيات في الناس، بعد أن غير قوله: (فإني بواحد مشغول)، ليجعلها (فإني عن واحد مشغول) ليؤكد بها على أن بشار بن برد زنديق كافر بالله الواحد. فلما بلغ هذا بشار خاف منها واضطرب وقال: "أشاط ابن الزانية بدمي، والله ما قلت إلا: (فإني بواحد مشغول)" فغيرها حتى تشهرني في الناس بما يهلكني" (2).

(1)- أبو الفرج الأصفهاني: كتاب الأغاني، ج 14، ص 208.
(2)- المصدر نفسه، ج 14، ص 208.

5 ـ الهجاء الكاريكاتوري الساخر:

من مظاهر التجديد في موضوع الهجاء في الشعر العباسي ما سيمى بالهجاء الكاريكاتوري الساخر، ويؤكد هذا الدكتور محمد مصطفى هدّارة، بقوله: " نعتبر أن التطور الفني الذي حدث أساسه الهجاء الساخر الذي يستهدف إضحاك الناس على المهجو وسخريتهم منه. ولهذا يعتمد على فن أصيل في رسم شخصية المهجو من ناحية معنوية أو جسمية، ولكنه ليس رسما تصويريا بل هو رسم كاريكاتوري يبعث على الضحك "(1). وفيه يعتمد الشاعر على عناصر السخرية المتوفرة في ثقافة مجتمعه. ومنه قصيدة العتبي في هجاء صديق له، يقول فيها: (2)

ولما رأيتك لا فاسقاً قويًّا ولا أنت بالزاهدِ
وليس عدوُّك بالمتّقي وليس صديقك بالحامد
أقمتك في السُّوق سوقِ الرقيق ونديت : هل فيك من زائد
على رجل غادر بالصديق كفُور لنعمائه جاحد(4)
فما جاءني رجل واحد يزيد على درهم واحد
سوى رجل خانه عقله وحلّت(5) به دعوة الوالد
فبعتك منه بلا شاهدٍ مخافة رَدِّك بالشاهد
وأبْتُ حميدًا إلى منزلي وحلّ البلاءُ على الناقد

وقد استوحى الشاعر هذه السخرية من سوق الرقيق والجواري، حيث نادى عليه في السوق فلم يأته رجلٌ واحد ليزيد عليه بدرهم، فلم يشتره أحد سوى رجل مجنون خانه عقله، وأصابته دعوة والده. وهي صورة ساخرة متكاملة.

(1) ـ محمد مصطفى هدّارة: اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري، ص 433.

(2) ـ ابن المعتز: طبقات الشعراء، تح. عبد الستار أحمد فرّاج، ط3، دار المعارف بمصر، القاهرة، مصر، (د.ت)، ص 315.

6- السخرية من أدعياء الأصل العربي:

من المعاني المستحدثة في هجاء الشعراء العباسيين الطعن في النسب حيث يسخرون ممن يدّعي أن نسبه عربي، وهو ليس بعربي، من هذا قول بشار بن برد يسخر من أبي عمرو بن العلاء وينسبه إلى العرب: (1)

ارفق بعمرو إذا حرّكت نسبته فإنّه عربي من فوارير

ومنه أيضا هجاء أبي نواس للهيثم بن عدي: (2)

الحمدُ للهِ هـذا أعجبُ العَجَبِ الهيثمُ بنُ عديّ صار في العرب !
يا هيثمُ بن عديّ لستَ للعرَبِ ولستَ من طيّئٍ إلاّ على شَغَبِ
إذَا نسبتَ عديًّا في بني ثُعَلٍ فقدّم الدال قبل العين في النَّسَبِ
كأنّني بكَ فوق الجسر منتصباً على جوادٍ قريبٍ منك في الحسَبِ
حتّى تراك وقد درّعتَه قُصُصاً من الصديد مكانَ اللّيف والكَرَبِ(1)
لله أنت فما قُرْبَى تهمُّ بها إلاّ اجتليت لها الأنساب من كثَبِ
فلا تزالُ أخا حِلٍّ ومرتحلٍ إلى الموالي وأحياناً إلى العَرَبِ

وهذا الهجاء المتعلق بالانتساب كان نسيج تلك الحساسية المتنامية بين العرب والموالي، والتي تحولت إلى مشكلة اجتماعية، كما يرى الدكتور محمد مصطفى هدارة إذ يقول: "ومن الطبيعي أن اتجاه الهجاء إلى هذه الناحية كان نتيجة لوجود مشكلة اجتماعية بالفعل وهي محاولة الموالي الانتساب إلى قبائل عربية، ولكن ربما كان المهجو صريح النسب ومع ذلك فهاجيه يريد أن يشتفي منه بالتشكيك في نسبه"(3)

(1)- أبو الفرج الأصفهاني: كتاب الأغاني، ج 3، ص 132.
(2)- أبو نواس: ديوان أبي نواس، ص 524.
(3)- محمد مصطفى هدارة: اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري، ص 429.

2- الهجاء بالفجور والفسق:

إلى جانب الهجاء المتضمن لمعاني الاتهام بالزندقة والخروج على تعاليم الإسلام، هناك لون آخر من الهجاء يتهم فيه الشاعر صاحبه بالفسق والفجور وارتكاب المعاصي، ومنه قول حماد عجرد في هجاء نافع بن عون سيد حبيبته الجارية "جوهر": (1)

يا نافع ابن الفاجرة ... يا سيد المؤاجرة
يا حلف كلّ داعر ... وزوج كلّ عاهرة
ما أمة تملكها ... أو حرّة بطاهرة
تجارة أحدثتها ... في الكشخ غير بائرة
لو دخلت عفيفة ... بيتك صارت فاجرة
حتى متى ترتع في الـ ... خسران يا ابن الخاسرة

ومن هذا القبيل قول "بشار بن برد" يخاطب أحد جيران "حماد عجرد" مناسبة وفاة أم حماد، يقول: (2)

أبا حامد إن كنت تزني فأبعدِ ... وبكِّ حرًّا ولّت به أم عجردِ
حرًّا كان للعزّاب سهلا ولم يكن ... أبيًّا على ذي الزوجة المتودّدِ
أصيبَ زناةُ القوم لما توجهت ... به أمّ حمادٍ إلى مضجع الرّدي
لقد كان للأدنى وللجار والعِدا ... وللقاصد المعتلّ والمتردّدِ

وليس أشد على حماد عجرد من الهجاء بهذه المعاني، حيث جعل أمه زانية يقصدها العزاب والمتزوجون. وأن موتها كان شديدًا على زناة القوم، سواء أكانوا عريبين أم حيرانا أم أعداءً أم غير ذلك.

(1)- أبو الفرج الأصفهاني: كتاب الأغاني، ج 14، ص 221.
(2)- المصدر نفسه، ج 14، ص 223.

3- الهجاء بالخنث:

نتيجة لانغماس المجتمع العباسي في مظاهر الترف والزينة في اللباس فسدت أخلاق الموالي وشاع فيها تشبه الرجال بالنساء، وهي ولا شك صفات دخيلة على المجتمع العربي. وقد اتخذ الشعراء هذا التخنث موضوعا للهجاء ومن هذا النوع أبيات للشاعر اسحاق بن سماعة المطيعي يهجو فيها سليمان بن المنصور والي الرقة في عهد الرشيد، قال فيها: (1)

أما ترى الرقة البيضاء شاغرة ... إلا شراذم نشذاذا وخصيانا
ما ترتجي بعد هذا اليوم لاظرفت ... كفاك إن لم تنلها من سليمانا
لا عيب بالمرء إلا أنه رجل ... يحكي الخرائد تأنيثا وتليانا

يمكن القول إن الهجاء في العصر العباسي "مثل اتجاها فنيا بنى هذه الأفكار والمعاني الهجائية انطلاقا من تأثره بمذهب الرافضة وأفكارهم في مدينة الكوفة. وكان الرافضة يسبون الصحابة وينهشون أعراضهم، وفي هذا يقول الدكتور محمد مصطفى هدارة عن هؤلاء الشعراء الهجائين: "فراقهم من هجمهم ورأوهم مثلا يحتذى في هجاء الانسان لخصمه، فجعلوا السب والشتم والنيل من الأعراض هدفهم في الهجاء وتحكم في شعرهم كل قيد فرضه الاسلام" (2)، وهذا ظاهر من هذه اللغة المتفلتة التي رأيناها في النماذج الشعرية السابقة، ان لغتهم هيستفة الى حد بعيد.

نشرة ج. هيورث دن

(1)- أبو بكر الصولي: كتاب الأوراق قسم أشعار أولاد الخلفاء، ط1، مطبعة الصاوي، القاهرة، مصر، 1936، ص 16.
(2)- محمد مصطفى هدارة: اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري، ص 428.

خصائص الهجاء في القرن الثاني:

يذكر الدكتور خصائص الهجاء في القرن الثاني، أوردها في مجموعة من النقاط، كالآتي: (1)

- اقتصاره على المقطعات القصيرة المناسبة لظروف أملاها العصر العباسي.
- عدم اندماج الهجاء في قصيدة مطولة مع الفنون الأخرى كالمدح والفخر.
- اصبح الهجاء فنا مستقلا يقصد الشاعر إليه قصدا ويخصص له مقطوعة بعينها.
- ميل الهجاء في القرن الثاني إلى الشعبية في معانيه وأسلوبها بقربه من نفوس الجماهير، ويكفل له الانتشار.
- اشتعال نار الشعوبية التي حاول أصحابها الحط من العنصر العربي الذي يرفع من نسبه فوق أنساب موالية من الفرس والأعاجم.
- الهبوط الى درجة السباب والفحش والابتذال.
- الارتفاع من الناحية الفنية إلى درجة التصوير الساخر الممتع الذي يدل على طاقة فنية مبدعة وذهنية ساخرة.
- خضوع الهجاء للعوامل المختلفة التي أثرت في تطور المجتمع نفسه واختلاف معاييره وقيمه.

---

(1)- محمد مصطفى هدارة: اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري، دار المعارف، القاهرة- مصر، 1963م، 421.

خصائص الشعر العباسي :

مما لا شك فيه أن الشعر العباسي فيه تنوع في الاتجاهات الفنية و في الطوابع الأسلوبية، سواء أتعلق الأمر بشعر الاتجاه المحافظ أم بشعر الاتجاه المجدد، أم بشعر الاتجاه المثقفن الذي جمع بين القديم والجديد، فإذا وازنت بين الشعر القديم والشعر المولد فلا شك أنك تجد في الأخير أثر التقدم ظاهرا للعيان »(1)؛ وهذا ظاهر في قصائد الشعراء العباسيين، ولا شك أن الخصائص الفنية متداخلة في النص الشعري الواحد، وهي متعددة وكثيرة، غير أن الدارسين المحدثين من قدم تصوره لهذه الخصائص، وقد اعتمدوا في استنتاجها على المقاييس الأدبية التي وردت في كتب البلاغة والنقد، وبناءً عليها، حدد الدكتور أنيس المقدسي ثلاثة مظاهر تلخص فيها خصائص الشعر المجدد في العصر العباسي، في قوله: " رأيت أن التجدد الشعري في العصر العباسي لم يتعد في الأغلب صناعة الشعر، وأنه منحصر في الوجداني منه »(2)؛ حيث جعل الصناعة الفنية، من أهم خصائص الشعر إلى جانب كونه منحصرا في الجانب الوجداني. وحددها في ثلاثة مظاهر هي: (3)

(أ)- رقة العبارة.

(ب)- التفنن في المعاني.

(ج)- التوفر على البديع اللفظي.

---

(1)- أنيس المقدسي: أمراء الشعر العربي في العصر العباسي، ط17، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، 1989، ص 86.

(2)- المرجع نفسه، ص 8.

(3)- المرجع نفسه، ص 87.

1- رقة العبارة:

هي من الخصائص الفنية التي يطلقها النقاد على الشعر بعامة، والشعر العباسي بخاصة. و رقة العبارة على هذا النحو حكم جمالي عام، يقول الدكتور أنيس المقدسي: « وحكمنا من هذا القبيل إجمالي لا حصر فيه. فلا العهد القديم يتفرد بخشونة الأسلوب وضخامة الألفاظ، ولا المولد بالنعومة والسلامة وعذوبة العبارة » (1)؛ فيمكن أن نجد عبارة رقيقة أو مجموعة عبارات في الشعر الجاهلي والإسلامي والأموي، وهي العصور القديمة، في تصنيف النقاد القدماء والمعاصرين، ويمكن أن توجد العبارة الرقيقة أيضا في العصر العباسي، عصر التجديد الشعري. ويربط الدكتور أنيس المقدسي رقة العبارة بالموضوع أو ما يسمى الغرض الشعري، حيث يقول: « ومن البيّن أن العبارة كثيرا ما تتوقف على الموضوع. فالشاعر القديم (بدويا كان أم حضريا) إذا تغزل أو رثى أو ألمّ جاء بالرقيق الناعم » (2)؛ فالمعيار إذن في الحكم على عبارة شعرية هو الموضوع الذي ترد فيه. وغالبا من ترتبط بموضوع الغزل أو الرثاء وغالبا ما يكون في حالة ألم أو وجد.

ويذهب الدكتور محمود مصطفى إلى أن الشعر العباسي تأثر بالمدنية فرقّ في عباراته وألفاظه، في موضوع الغناء، يقول: « كان من أثر المدنية رقة حاشية الكلام بنوعيه: النثر والنظم، ولما كان الشعر مجال الأناقة والتظرف، فقد رقت حاشيته كثيرا، خصوصا وأنه كان موضوع الغناء وهو يتطلب اللفظ الأنيق الرقيق العذب، لذلك نرى لفظ في هذا العصر قد صار إلى غاية الرقة، فلو سال كلام لرقته لسال، ولو طار لفظ لخفته لطار » (3)؛ فقد تأثر الشعر العباسي بالمدنية، حيث كان الشعر يغنّى في المجالس المختلفة، ولكي يحظى بالقيمة ويذاع على الشاعر أن يختار الرقيق من الألفاظ.

---

(1)- أنيس المقدسي: أمراء الشعر الغزلي في العصر العباسي، ص 87.

(2)- المرجع نفسه، ص 87 - 88.

(3)- محمود مصطفى: الأدب الغزلي وتاريخه في العصر العباسي، ط2، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، 1937، ج2، ص 369.

ويمكن أن نمثل للشعر الجميل المتناهي في الرقة والسلاسة، بقوله الشاعر دعبل الخزاعي: (1)

أين الشباب وأية سلكا ... لا أين يطلب؟ ضل، بل هلكا
لا تعجبي يا سلم من رجل ... ضحك المشيب برأسه فبكا
يا سلم ما بالشيب منقصة ... لا سوقه يبقى ولا ملكا
يا ليت شعري كيف نومكما ... يا صاحبيّ إذا دمي سفكا
لا تأخذا بظلامتي أحدا ... قلبي وطرفي في دمي اشتركا

وهذه المقطوعة أهّلت "دعبل الخزاعي"، كي ينال حظوة عند هارون الرشيد.

(1) - دعبل الخزاعي، ديوان دعبل الخزاعي، شرحه حسن حمد، ط1، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، 1994، ص 106.